شخصية بائسة

للكاتب الأيطالي بيراندللو

ترجمة امل حمصي

اعتدت منذ زمن طويل ان استحضر شخصيات قصصي القادمة صباح كل سبت يستغرق هذا العمل خمس ساعات ، من الثامنة حتى الواحدة. وغالبا بل دائما اجد نفسي مع صحبة سيئة .

لا اعرف لماذا لايحضرني ـ وكان ذلك قاعدة ـ الا اسوأ الاشخاص في العالم ، يتطلب التعامل معهم جهدا مخيفا . فاما ان يكونوا مصابين بمرض غريب او محاطين بظروف غير عادية .

اصغي لكل واحد منهم بصبر واسالهم بلطف ، أسجل اسماءهم وبعض التفصيلات الهامة عن حياتهم ، واحفظ سجلا عن مشاعرهم وامالهم . وعلي ان اضيف ـ من سوء حظي ـ اني لااقتنع بسرعة ، اني استطيع ان اتحمل كثيرا من المضايقات ولكني لااحب ان يهزأ بي ، كما اني اريد دائما ان اتسلل الى اعماق ارواحهم بالبحث الطويل المضني .

ان اكثر من واحد منهم يبدو عليه ، عندما اخصه بأسئلتي ، العبوس والتجهم والعناد ولعلهم يفعلون ذلك لانهم يظنون انني اسعى لسلبهم حماسهم الذي يتخذونه عندما يتقدمون الي اول مرة .

فاحاول بصبر ولطف ان اريهم وابين لهم ان اسئلتي ليست بدون قيمة ، من السهل ان نريد ان نكون هذا الانسان او ذاك ، ولكن علينا ان نعرف ما اذا كانت لدينا القوة لتغيير انفسنا الى مانحب ان نكون. فاذا كانت تنقصنا تلك القوة فسيبدو ادعاؤنا مضحكا وخاسرا .

ولسوء حظي فان شخصياتي ترفض فهم هذا . فلا املك غير ان ارثي لها لانني طيب القلب . ولكن هناك في الوقت ذاته بعض الاخطاء لايمكن ان تستدر العطف بدون ان تستدعي الضحك .

وعلى كل حال فان شخصيات قصصي تجوب العالم معلنة اني كاتب قاس بلا قلب . ان مانحتاج اليه هو ناقد عطوف علينا يظهر للناس مدى الرحمة التي تكمن خلف الضحك .

ولكن اين هم اليوم اولئك النقاد ذوو العطف ؟

لابد ان اشير بانه يوجد في هذه المقابلات بعض الشخصيات التي تشق طريقها وتتخطى الاخرين وتفرض نفسها بوقاحة حتى انني اضطر احيانا الى طردها بلا توان . وكثير من هؤلاء الاشخاص من يفقد ثورته ويندم ندما صادقا بمرارة على مافعل ومن ثم يسألني ان اضع في الحال اخطاءهم في الصورة التي ارسمها لهم . وعندئذ ابتسم واخبرهم ان عليهم ليكفروا عن خطيئتهم الرئيسية ان ينتظروا حتى يتوفر لدي الوقت والفرصة للعودة اليهم .

وبين هؤلاء الذين يقفون على باب الغرفة المزدحمة من يبدو عليه علائم الالم فمنهم من يدخل ومنهم من يتعب من الوقوف فيذهب ليطرق باب كاتب اخر .

فكثيرا مايحدث اني اجد في اعمال زملائي شخصيات معينة قدمت نفسها الي قبلا كما قد يحدث ان احداها لاتكتفي بتصويري لها وطريقة معالجتي فترفض المحاولة وتذهب لتعطي معلومات افضل عن نفسها في مكان اخر .

وهذا لايهمني اذ يتقدم لي عادة في كل اسبوع شخصيتان او ثلاث جديدة . وغالبا مايشتد الازدحام فاضطر الى الاستماع الى اكثر من واحد في آن واحد . الا انه قد تمر فترة يكون فيها دماغي مجزءا ومشوشا فيثور على هذه المقابلات المزدوجة او المثلثة فيستبد به الغضب ويطلب منهم ان يتكلم كل في دوره بنعومة وهدوء .والا فليذهبوا الى جهنم .

وساذكر دائما ذلك الاذعان اللامتناهي الذي ابداه رجل فقير مسن، قطع مسافة طويلة ليراني ، وانتظر دوره . كان معلما يدعى ايسيليو سابوريني . نفي الى امريكا عند سقوط الجمهورية الرومانية عام ١٨٤٩ لتاليفه اغنية وطنية ، وبعد خمس واربعين سنة اي حين اصبح في حوالي الثمانين من العمر عاد الى ايطاليا ليموت . كان مهذبا جدا ويذكرني صوته النحيل بوزوزة الناموس . لقد سمح لكل واحد ان يمر امامه ، واخيرا في احد الايام حين كنت لاازال في فترة النقاهة بعد مرض طويل ، رايته يدخل غرفتي بكل تواضع وعلى شفتيه ابتسامة خائفة :

ـ « أاستطيع ؟ ... اذا كان هذا لايزعجك .. »

ـ « نعم .. ادخل ياعزيزي الشيخ » . لقد اختار انسب فترة فجعلته يموت حالا بقصة قصيرة دعوتها « موسيقى قديمة »

في السبت الماضي دخلت الى مكتبي متاخرا قليلا عن المعتاد عن الجمهور رواية طويلة قدمها لي احدهم انتظرت اكثر من شهر لاقراها فجعلتني مستيقظا حتى الساعة الثالثة صباحا لما اثارته في احدى شخصياتها ـ الشخصية الحية الوحيدة بين عدة ظلال باهتة .

انها تصف رجلا فقيرا مسنا هو الدكتور فيلينو ، ويظن هذا انه قد وجد دواء فعالا لكل امراض الانسان ، علاجا لايخطيء قادرا على ان يعزي نفسه به وكل البشر اذا ماوقعت مصيبة ما سواء كانت عامة او خاصة.

حقا ، انه لاكثر من دواء او علاج هذا الذي اكتشفه الدكتور فيلينو ، انها طريقة تتالف من قراءة كتب التاريخ من الصباح الى المساء ، وممارسة النظر الى الحاضر وكانه حادث دفن في سجل الماضي . وبهذه الطريقة شفى نفسه من كل الم او عذاب ، وقد وجد دونما حاجة الى الموت ذلك السلام الهادىء المشوب بالحزن الذي تظل تحتفظ به المقابر ولو مات جميع من على الارض .

ماكان الدكتور فيلينو ليحلم ابدا برسم المستقبل على مقاييس الماضي فهو يعرف ان ذلك اضاعة للوقت ولا يفعل ذلك غير الحمقى اذ ان التاريخ وهو تاليف نموذجي لعناصر اختارها علماء التاريخ موافقة لمشاعرهم الخاصة ، حبهم ، كرههم ، احلامهم ، وارائهم ، يمنع الانسان من استخدامه لانه لايزال سائرا ، وعناصره متفرقة مضطربة . وما كان ليحلم ان يرسم المستقبل معتمدا على قواعد الحاضر ، ولكنه قام في الحقيقة بعكس الامر . كان يحاول ان يقذف بنفسه الى مستقبل خيالي كيما ينظر الى الحاضر ، ولقد نجح في النظر اليه كما لو كان ماضيا.

فمثلا لقد فقد ابنته قبل بضعة ايام فتقدم اليه احد اصدقائه ليواسيه في مصابه ولكنه وجده قد نسي الامه تماما وكان الطفلة فارقت الحياة منذ مئة عام لقد نجح في ان يسحب على حزنه ـ مع انه جديد كل الجدة ـ ذيل الماضي ويغيبه في طية الزمن ولكن هذا ، على كل حال ، لم يمنعه عن ان يتحدث عن مأساته بتعال ووقار شديدين .

وباختصار ، لقد اخترع الدكتور فيلينو لنفسه الة تشبه التلسكوب . وهو يستخدمه لا لينظر الى المستقبل لانه يعلم انه لن يرى شيئا ،ولكنه

يحاول ان يقنع نفسه في انه اذا وجه الفتحة الصغرى الى الحاضر ونظر اليه من خلال الفتحة الكبرى فسيرى كل الحوادث وقد اصبحت صغيرة جدا وبعيدة. وفي الوقت ذاته كان يعمل في تاليف كتاب « فلسفة البعد » الذي لاشك اثار ضجة كبرى . .

لاح لي وانا اقرا تلك الرواية ان المؤلف ـ وقد شغل نفسه في حبك قصص تافهة ـ لم يجد في نفسه القدرة على فهم تلك الشخصية التي تحمل في طواياها بذرة اية رائعة ولكن مع مضي الزمن نجحت تلك الشخصية في الهروب من ذلك الكاتب وحررت نفسها من سيطرته فما كان منه الا ان فرض نفسه على تلك القصة التافهة . وفجاة سمح لنفسه ان ينتهي بالضرورة الى نهاية خاطئة غبية ، مشوها بذلك الشخصية ومضعفا لها .

استيقظ خيالي ووقفت فترة طويلة في هدوء الليل وصورة تلك الشخصية ماثلة امامي ، ياللاسف ! انها مادة خصبة لبناء آية ادبية رائعة شريطة الا يسيء فهمها كاتب مسكين فيهملها مع انه جعل منها بطل قصته . كما ان كل هذه التفاهات التي قدمها يمكن ان تتحول وتصبح حية ايضا وابتليت بحزن شديد وغيظ اشد لان هذه الشخصية الحية لم يتم رسمها وارتمت بشكل بائس .

وحين دخولي مكتبي في ذلك الصباح شعرت بشغب غير عادي ذلك ان الدكتور فيلينو شق طريقه من بين الشخصيات المنتظرة متخطيا اياها فاستبد بها الغضب والاشمئزاز واندفعت نحوه محاولة رده على اعقابه وطرده .

فقلت : « ماهذا ايها السيدات والسادة ؟ ماهذا كله ؟ وانت يادكتور فيلينو ماذا تريد هنا ؟ لقد سبق ان اضعت وقتا كبيرا معك . انك لست ملكي ، دعني وحيدا لاتفرغ الى شخصياتي ، اغرب عن وجهي .»

فغمر وجه الدكتور يأس عميق وحزن شديد مما دفع الشخصيات الاخرى الى ان تحس بالشفقة عليه فتراجعت .

ـ « لاتطردني ارجوك ، تكرم علي بخمس دقائق فقط ان سمح هؤلاء السيدات والسادة ، ودعني اشرح لك ارجوك . » فسألته متحيرا بعد ان حرك اوتار عاطفتي :

ـ « تشرح ماذا ؟ انني لمتاكد تماما ياعزيزي الدكتور انك جدير بيدين خير من اللتين انت فيهما ولكن ماذا استطيع ان افعله بك الان ؟ لقد عبرت لك عن اسفي وهذا كل ما استطيع ان افعل ! »

فانفجر الدكتور صائحا : « كل ماتستطيع ان تفعله ؟. استحلفك بالله لا ! » وكان جميع جسمه يهتز غضبا ، انك تقول ذلك لانني لست ملكك، صدقني ان اهمالك واحتقارك لاقل قسوة من هذه الشفقة السلبية التي ـ وانا اسف لقول هذا ـ لايجدر ان يتمتع بها فنان . لا احد يعرف اكثر منك بانا احياء ، اكثر حياة من ذوي اللحم والدم ، قد تكون اقل واقعية ولكنها اكثر حقيقة . ان الانسان ياتي الى العالم بوسائل مختلفة ياسيدي العزيز انت تعلم ان الطبيعة تستخدم الخيال البشري ليمضي بعملها الخلاق ، ان كل من تلده هذه الفعالية المبدعة التي تكمن فيها روح الانسان مهيا بالطبيعة لحياة اعلى كثيرا من حياة اولئك الذين يلدهم رحم امراة . ان من يولد شخصية ويوهب البقاء شخصية حية يستطيع احتقار الموت نفسه . انه لن يموت ابدا ، سيموت الانسان سيموت الكاتب ـ انه الوسيلة الطبيعية لما خلق ـ ولكن الشخصية تظل خالدة : وانك لاتحتاج الى مواهب خارقة لكي تكون خالدا ولا لاعمال معجزة ، قل لي من كان سانشو بانزا ؟ قل لي من كان دون ابوتديو ؟ومع ذلك فلهم الحياة الخالدة لانهم كانوا جرائيم حية اسعفها الحظ فوجدت وحما خصبا وعقلا عرف كيف يحضنها ويربيها . »

فقلت : « نعم ياعزيزي الدكتور ولكني مازلت عاجزا عن معرفة ماذا تريد مني ؟ »

ـ « انت عاجز عن المعرفة ؟ هل اخطات المكان ؟ ام انا اتسكع حول القمر ؟ اي نوع من الكتاب انت ؟ اتجرؤ حقا على القول انك لاتدرك رهبة ماساتي ؟ الا تفهم اني كتب لي ان امتاز بكوني شخصية هذا الامتياز الذي لايقدر بثمن ـ وفي عصرنا ـ اعني في العصر الذي يحاط بصعوبات حقيرة تعرقل الوجود الانساني وتضعفه وتشوهه . امتاز باني ولدت شخصية وقدر لي ـ حتى في حالتي البسيطة ـ ان اخلد ولكن مع ذلك فان الحظ السيء رماني بين هاتين اليدين ليحكم علي بالموت ظلما وجورا واجبرت على العيش في عالم مزيف حيث لااستطيع التنفس او الحركة لان كل شيء مزيف تافه مدبر ؟ ليس الا ورق وكلمات كلمات وورق ان الانسان الذي يجد نفسه في مثل هذه الظروف ولا يستطيع او لايريد ان يكون موضوعا لها يتمكن من الهرب والتحرر منها ، ولكن الشخصية المسكينة لاتستطيع لان عليها ان تظل مسمرة الى استشهاد ابدي . هواء .. هواء .. حياة !

« انظر الي فقط .. فيلينو .. لقد دعاني فيلينو هل تعتقد ان اسهمي يجب ان يكون فيلينو ؟ غبي .. غبي انه لم يستطع ان يعطيني شيئا ولا حتى الاسم ولماذا جاء الي انا مؤلف فلسفة البعد ليجعلني انتهي بهذه الطريقة التي يرثي لها ؟ ليجعلني احل تشويش عقدة قصته الغبية .. لقد اجبرني ان اكون زوجا ـ بدلا من نيروني المحامي ـ لفريزيلا المجنونة، لاتحاول التماس الاعذار له . ان هذه ياسيدي جرائم لاتمحى الا بالدماء والدموع . ولكن ماذا يحدث هنا عوضا عنها ؟ لاشيء غير الصمت او ربما بعض الاسطر تغطي صفحتين او ثلاثا . ولعل ناقدا يقول : « ياللاسف .. ان الدكتور فيلينو المسكين يستدر الشفقة لقد كان شخصية جيدة.» وعند ذاك ينتهي كل شيء ويحكم علي بالموت ، هذه هي حالي انا مؤلف فلسفة البعد الكتاب الذي لم يستطع ذلك المؤلف الغبي ان يجعله يطبع على حسابي . مزعج ياسيدي مزعج لاتدعنا نخوض في هذا الموضوع مرة اخرى . الى العمل بسرعة ياسيدي العزيز حالا حالا .. دعني اعيش انت وحدك من يفهم الحياة التي تضج بي . »

وحين انتهى من ثورته العاطفية لم اقدر على اجابته بغير نظرة طويلة الفيها على وجهه ، فقال متعجبا : « انك تظن ان ذلك قد يسوء مؤلفي.. ولكن اليس هذا عرضا شرعيا ؟ اليس حقك صريحا في جعلي ملكا لك واعطائي الحياة التي لم يقدر ذلك الغبي على اعطائي اياها ؟ انه حقك وحقي ايضا .. انك تفهم اليس كذلك ؟ »

ـ « قد يكون من حقك ايها الدكتور العزيز ، قد يكون حقك الشرعي كما تحب ان تعتقد ولكن لايمكنني ان اقوم بمثل هذه الامور ان ذلك التوسل لن يجديك .. بكل بساطة لن افعل هذا . جرب مع غيري .»

ـ « ولن اعهد بنفسي ان انت ...؟ »

ـ « لا اعرف . قد تجد شخصا ما يؤمن تماما بشرعية هذا الحق . لحظة يادكتور فيلينو عندي فكرة ، هل انت مؤلف « فلسفة البعد » ام لا؟

ـ « كيف لا اكون ؟ » قال هذا صائحا قافزا على قدميه واضعا يديه علامة على انه يقول الصدق « انني انا طبعا ، كيف تجرؤ على الشك في هذا ؟ اه اني افهم ، كل ذلك بسبب جريمتي لااستطيع ان اتبين كل ماينتج عن اختراعي لهذا التلسكوب فهو لم يقدم الا موجزا عن نظرياتي.»

فرفعت يدي عندما اشتد قربه مني ثم ابتسمت وقلت :

ـ « حسنا حسنا ولكن لم انت ؟...»

ـ « لم انا ؟.. »

ـ « لم انت شديد التاسف من مؤلفك ؟ هل اتيحت لك الفرصة انت بالذات للاستفادة من اختراعك ؟ هذا ماارید لك قوله تماما . دعني اوضح لك . اذا كنت تؤمن حقا بجدوى فلسفتك ايماني بها فلماذا لاتستخدمها في هذه الحال . انك تبحث ـ وفي عصرنا هذا ـ عن كاتب بيننا يهبك الخلود . ولكن اقرا فقط مايكتبه كبار نقادنا عنا نحن الكتاب المعاصرين المساكين . نحن موجودون ولكننا في الوقت ذاته غير موجودين .ياعزيزي الدكتور لماذا لاتخضع ـ كما نفعل ـ اهم الحوادث ، واهم الاسئلة المحرقة واعظم الاعمال الحديثة الى هذا التلسكوب الجديد ؟ ياعزيزي لدكتور اظنك ان تفعل هذا فلن ترى احدا ولن ترى شيئا ابدا ولذلك حاول ان تعزي نفسك ودعني افرغ لشخصياتي المسكينة التي قد تكون رديئة ولكنها غير مسرفة في الطموح .

ترجمة أمل حمصي

من « ندوة الفكر والفن »